## الفصل الأول

# عَصْرُ الفَرَزْدَق

### ١ ــ الحركة السياسية

**معاوية الثانى :**

لم يمض على تولّى معاوية بن يزيد الخلافة إلاّ بضعة أشهر حتى نودى فى دمشق ــ عاصمة بنى أمية ــ « الصلاة جامعة » . فتقاطر الناس إلى المسجد الكبير من كل فجّ . واحتشدوا فيه مستغربين متشاورين . يهجس بعضهم إلى بعض متسائلين : هل من ثورة جديدة بعد قتل الحسين ؟ ! هل داهمنا عبد الله ابن الزبير من الحجاز ؟ ! هل هاجمنا الخوارج من الجزيرة ؟ ! ماذا فى الجو السياسى يا ترى ؟! وفجأةً ، ظهر الخليفة الشاب معاوية الثانى قرب المحراب . وطفق يعتلى المنبر درجة درجة بتؤدة وهوادة . وقد ارتسمت على وجهه أمارات الحزن العميق والألم الهادئ . وأشار بيده ليتكلم . فساد الجمع سكوت رهيب تلتقط فيه الأنفاس التقاطاً رفيقاً . وكأنما تحولت كل جارحة فيهم إلى أذن تصيخ السمع وعين ترنو إليه بقلق النهم ، فصاح :

« أيها الناس : إن جدّى معاوية نازع الأمر أهله . ومن هو أحقُّ به منه . لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو على بن أبى طالب . وركب بكم ما تعلمون ، حتى أتته منيّته . فصار فى قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بخطاياه . ثم تقلد أبى الأمر فكان غير أهل لذلك . وركب هواه ، وأخلفه الأمل ، وقصر به الأجل ، وصار فى قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بجرمه » .

ثم أجهش بالبكاء ، وشرق [1] بدموعه ، فجرت بين الناس موجة همسات

---

(١) شرق باللمع : غص به .

ووشوشات وتساؤل : ما بال الخليفة يبكى ؟ ؛ ماذا يقصد بهجو أبيه وجدّه والتشهير بهما على ملأ من الناس وإذاعة ذلك من فوق المنبر ؟ ولكن الخليفة قطع هذه الهمسات بقوله : « أيها الناس ! ! إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وبؤس منقلبه . وقد قتل عِتْرَةَ رسول الله ، وأباح الحرم ، وضرب الكعبة ؛ وما أنا بالمتقلد ولا بالمحتمل تبعاتكم . فشأنكم وأمركم . والله لئن كانت الدنيا خيراً فلقد نلنا منها حظًّا ، ولئن كانت شرًّا لكفى ذرّية أبى سفيان ما أصابوا . ألا فليصل بالناس حسان بن مالك ، وشاوروا فى خلافتكم رحمكم الله ! ! » .

ضجّت دمشق لهذا النزول الفجائى عن العرش ، وشاع الخبرُ فى الولايات ، فنامت سطوةُ بنى أمية ، وقويت شوكة الكارهين لحكمهم والطامعين فى ملكهم والطموحين للرياسات . . . ومَن كان ضِلْعُهُ مع ابن الزبير وجد الفرصة سانحة لمبايعته كسباً لودّه . واستولى مصعب بن الزبير على العراق باسم أخيه عبد الله ؛ ووثب المختار الثقفى بالكوفة ، وامتدت سلطته إلى شمالى الجزيرة بحجة الثأر من قتلة الحسين ، والتحق به خلق كثير . وتوالت غزوات الخوارج فى الجزيرة . والعراق . واضطربت مصر ، وقلقت فلسطين ، وباتت دمشق فى غليان وبحران من الفوضى يحكمها الضحاك بن قيس نائباً عن الخليفة المعتزل ، ريثما يتم أمر المسلمين فيجمعون على حاكم يرتضونه .

وضجّ بنو أمية لهذه المفاجأة ، وخافوا أن يفلت الحكم من أيديهم وقد بنوه بشقّ النفس . بل لم يكد يتمّ بناؤه حتى فاجأهم هذا الخليفة الزاهد بمحاولة هدّمه فعرضوا عليه أن يولى أخاه خالداً مكانه ، فقال : « والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فلا أتقلد وزْرَها »[1] فسعى بعضهم إلى بعض يتشاورون ويتبادلون الرأى ورسم الخطط لاستبقاء الحكم فى عائلتهم ، وكثر الهمسُ حولهم ، وتفتحت العيونُ عليهم ، وروقبت حركاتهم ، فأجمعوا أمرهم على عقد مؤتمر فى الجابية — وهى ضاحية قريبة من دمشق — ليكونوا قريبين منها بعيدين عنها فى آن واحد ، يرقبون

---

(١) الوزر : الإثم . وكذلك الثقل : يقال وضعت الحرب أوزارها أى أثقالها . وأوزار الحرب أيضاً : آلاتها .

الحركات السياسية ولا يراقبون . وحضر المؤتمر آل أبي سفيان وأصهارهم ، كما حضره مروان بن الحكم وأولاده ، وحسان بن بجدل أمير فلسطين ، وعبيد الله بن زياد أمير البصرة، وكبار الضالعين مع بنى أمية . وكان على الضحاك بن قيس أن يحضره معهم غير أنه تخلّف عنه فى آخر لحظة ، فعرف أن هواه مع ابن الزبير ، وأنه عازم على دعوته إلى دمشق والمناداة به خليفة. وكذلك فعل النعمان ابن بشير عامل حمص ، وزفر بن الحارث رئيس القيسية فى قنسرين والجزيرة ... وأدرك المؤتمرون فى الجابية أنهم أضاعوا كل شىء ، وأنه لم يبق لهم إلا ضاحية الجابية وحدها ، فاضطربوا اضطراب المسعور ، وحسموا الجدلَ بسرعة ، واتجهوا إلى شيخ قريش الوقور مروان بن الحكم ، فبايعوه خليفةً على أن يلىَ العهدَ بعدَه خالدُ بن يزيد ، فعمرو بنُ سعيد بن العاص ، إرضاءً لكل فروع بنى أمية وأحلافهم وسائر أحزاب دمشق . وبنَى[1] مروانُ بأم خالد اكتساباً لودّ بنى كلب . وسارَ بمنْ تجمّع حوله إلى دمشق فإذا أبوابها قد أغلقت دونه ، وإذا الحرسُ فوقَ أسوارها على استعداد للتنكيل بمن تسوّلُ لهُ نفسه اقتحامها بالقوة ، فتحول عنها مضطرًّا إلى أدغال الغوطة[2] الكثّة يتوارى فيها خوفاً من كمين . ودارت به الدنيا إذ لم يجد ملجأ يعصمه ، وتخوّف على نفسه وأهله وخشى أن ينفضّ عنه من بقى على الولاء لبنى أميّة فيضطر أن يرتمى على أقدام أعدائه طالباً حمايتهم ورحمتهم .

فلنتركه فى حيرته قليلاً ولنعد إلى الوراء ملياً لنسير مع التاريخ القصير منذ البعثة حتى مروان ، نستطلع خفايا الأسباب التى أدت بالدولة الإسلامية الناشئة إلى ما أدّت إليه من قلق واضطراب وفوضى ، ولما يتكامل نموها بعدُ .

**يقظة وسنان :**

جاء النبى محمد صلى الله عليه وسلم بدين جديد وحّد به معبود الجزيرة كلها فاتحدت آمال العرب حول هدف أسمى ، وتناسوا الضغائن إلى حين . ولكن

---

(١) بنى الرجل بالمرأة : تزوجها .

(٢) الغوطة : لفيف من البساتين فى ظاهر دمشق .

الطباع المغروسة فى النفوس من أجيال طويلة لا يمكن أن تمحوها سنون قليلة مضت بين دهشة الجديد والإعجاب بشخصية النبي اللامعة وعبقريته الفذّة . ولم يكد يتحول عنهم حتى اختلفوا فى من يتولى الأمر بعده . وانقسموا إلى مهاجرين وأنصار ، ثم انقسم الأنصار إلى أوس وخزرج . . .

وتبوّأ الخلافة أبو بكر . فإذا العرب فى الجزيرة قد ارتدوا عن الدين الجديد لأنهم لم يتعودوا الاتحاد العام والطاعة لحكومة. وضغا[1] شاعرهم الحطيئة قائلاً :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا ... فيا لهفتى مابال دين أبى بكر

أيورثها بكراً إذا قام بعده ... فتلك وأيْمُ الله قاصمةُ الظهرِ

وكان على أبى بكر أن يخمد ثورتين فى آن واحد : الثورة الأولى ، وهى حروب الرّدة ، والثورة الثانية ، وهى الكامنة فى نفس على وأنصاره ألماً لحرمانهم الخلافة وغيرةً من ابن أبى قحافة . فأخمد الأولى بسيف الله المسلول خالد بن الوليد ، والثانية بسياسة ابن الخطاب وشدته . والتاريخ يحدثنا عن هذه وتلك أشياء كثيرة من مناقشة وملاحاة[2] .

ثم توفى أبو بكر بعد أن توطد الدين والأمن فى الجزيرة بعض التوطد . وجاء عمر فساق الجيوش إلى الشام والعراق ومصر ليلهى العرب عن المنازعات الداخلية بحروب خارجية ، وطرد من الجزيرة كل من لم يدخل فى الدين ، فلم يجتمع بعده فى الجزيرة دينان . وكانت الدولتان المتاخمتان للجزيرة العربية : الفارسية والرومية ، قد هرمتا وتقوض فيهما الخلق الاجتماعى والسياسى ، فدهمهما العرب مباغتين فإذا هما تنهاران أمامهم كما ينهار البنيان المتداعى ، ولم تتماسكا إلا بضع سنوات ثم انحنتا أمام الإسلام إما بالدخول فى الدين ، أو بالجزية ، أو بالانكسار الحربى وما يتبعه من استرقاق الرجال وسبى النساء واكتساب الأموال . . .

ذل هؤلاء الموالى بعد عز ، وطأطأوا رؤوسهم خانعين ، وأخذتهم الدهشة فلم يستفيقوا حتى كان العرب — وهم مستعمَروهم بالأمس القريب — سادة يحكمون

---

(١) ضغا السنور ضغواً وضغاء : صاح .

(٢) الملاحاة : المنازعة .

فى رقابهم وأموالهم ، أغنياء بعد فقر ، حتى منعهم عمر من اقتناء الضياع والزراعة لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم وعبيدهم كل ذلك يدفعه لهم من بيت المال . وقتل عمر بدسيسة من هؤلاء الموالى المتألمين لعزهم المنهار وسلطتهم الضائعة ! !

وعهد عمر — وهو فى سكرات النزع — إلى مجلس الستة فى أن ينتخبوا خليفة له ، فولى مجلس الشورى عثمان بن عفان فنقم عليه بعض القرشيين اختصاصه أقاربه بالمناصب الكبرى . وفعلت الدسائس فعلها فثار عليه بعض المشاغبين وحوصر عثمان وقتل شر قتلة : شدخ [١] رأسه وبعج [٢] بطنه وقطعت أصابع زوجته نائلة بنت الفرافصة وهى تدافع عنه السيوف ، فاتخذ معاوية — وكان والياً لعثمان على دمشق — قميصه الملطخ بالدم وأصابع نائلة المقطعة مثاراً لدموع أهل الشام وسخطهم على قتلته . وبايع الناس لعلى فى الحجاز والعراق ، ووقف معاوية موقف المعارضة . ثم ثار طلحة والزبير — وهما من الصحابة العشرة المبشرين بالجنة — ومعهما عائشة بنت أبى بكر الصديق وزوجة النبى المفضلة لديه . ثار هؤلاء فى وجه على ومعهم حزبهم من الحجاز ، فقضى عليهم بسرعة فى وقعة الجمل . والتفت إلى معاوية فالتقى به عند صفين بالجزيرة الشامية ، وكاد يتغلب عليه لولا أن رفع أصحاب معاوية القرآن طالبين المهادنة والتحكيم ، فتوقف كارهاً ، وانقسم الناس بسبب هذا التحكيم إلى راض به وكاره له ، وانشق عن علىّ حزب شديد الوطأة عليه وعلى خصومه هو حزب الخوارج ، ولولا حادث التحكيم لغلب أحد الفريقين ، وانتهت الخصومات الحربية والمنازعات السياسية ، ولتغير وجه التاريخ الإسلامى بغير هذا الشكل الذى نقرؤه الآن .

وقتل الخوارج علياً فاستتب الأمر لمعاوية بما اشتهر به من حنكة ودراية وسياسة مكيافيلية [٣] ، يتألف الأحزاب بالمال وبالوعود وبالمناصب ثم يدس الدسائس ويحرض ويقتل ويقتال إذا حزبه الأمر .

---

(١) شدخ : كسر .

(٢) بعج : شق .

(٣) يقال : سياسة مكيافيلية أى مجردة من الضمير والنية الحسنة وتنسب إلى ميكافلى السياسى والمؤرخ الإيطالى ( ١٤٦٩ — ١٥٢٧ ) ومن أشهر مؤلفاته : « الأمير » و « فن الحرب » .

وسلم الملك لابنه يزيد بعد موته والعرب فى أقصى فارس وخراسان وأرمينية ومصر يسرف جنودهم فى الفتوح والقتال ، ويسرف أمراؤهم بالبذخ والترف والمال واقتناء الجوارى والضياع . ولكن الثورات لم تنقطع فى داخل البلاد من الخوارج وشيعة علىّ وابن الزبير . . . فقضى على هذا الأخير بواقعة الحرة ، وأتبعها من جاء بعده بهدم الكعبة وقتل ابن الزبير وصلبه . وأصبحت الأمة منشقة أحزاباً وشيعاً يقاتل بعضها بعضاً بحنق ، وتتطاحن بقسوة ويطمع كل منها بالملك .

والملاحظ هنا أن الفكرة السياسية قد تطورت ، فى برهة الخمسين عاماً التى تلت الهجرة ، تطوراً سريعاً من سياسة قبَلية ضيقة ، إلى فكرة أكثر سعة وضخامة ، هى فكرة الملك الإسلامى الكبير . وأصبحت الخلافة ومن هو أحق بها ، مدار ألاعيب الساسة والزعماء والطماحين . . . ولكل حزب مؤيدون وأنصار يعضدون فكرته ويدافعون عنها بالسيف تارة وباللسان تارة أخرى . ولكل حزب مبادئ وأهداف وأساليب خاصة تتحلق كلها حول كرسى الخلافة .

وتولى الملك بعد يزيد ابنه معاوية الثانى أشهراً كانت الدسائس تحاك فيها من كل طرف . فتنازل عنه كما رأينا فى مطلع البحث . ثم تمت الغلبة لمروان بن الحكم شيخ قريش من بنى أمية والإسلام ، تتوالى انتصاراته العسكرية على الحدود فى حين تأكل فى داخله الثورات الهدامة الدامية ، وتنوشه عضّاً ونهشاً بغير رحمة . ولولا حزم مروان وحزم ابنه عبد الملك بعده وأخذهما الناس بالشدة والصرامة والقسوة لما كان نصيبهما أقل من نصيب عمر وعثمان وعلى والحسين .

ولقد وقف عبد الملك مرة على المنبر فقال : « من قال لى بعد موقفى هذا : اتّق الله ؛ ضربت عنقه ! ! » بهذا استطاع المروانيون أن يوطدوا ملكهم على مضض من سائر الأحزاب .

**الأحزاب السياسية :**

ولنلق نظرة عجلى على دعاوى كل حزب وأسلوبه ومنهاجه للوصول إلى كرسى الحكم . ففيها تنوير للعصر الذى ندرسه وللشاعر الذى سنلقاه بعد صفحات .

## ( ١ ) الحزب الشيعى :

يستند هذا الحزب إلى قرابة علىّ من النبي وما اتسم به هذا الخليفة الشهم من نبل وشجاعة وعلم وفقه فى الدين . وأنه بحكم هذه القرابة العصبية والمصاهرة والروح العالية والعلم أحق بالملك ، وأولاده أحق من أولاد أمية الحاكمين ، وأنه أول من أسلم وكانوا الآخرين ، وأنه أول من عرض نفسه للقتل فى سبيل النبي . وأنهم أول من شاكسه وحاربه ومنع دعوته بالعنف والسيف واللسان . . .

وعلى هذا الأساس بويع للحسن ، فاشتراه معاوية بالمال ، ثم دس عليه من سمه ؛ ليتخلص منه ومن حزبه . وبويع بعده للحسين ، فثار بيزيد . فقتل وتشتت أنصاره ؛ واشتد يزيد وعماله على هؤلاء الأنصار وقسوا عليهم حتى لم يعودوا يجرؤون على الظهور . فكانوا يُخْبتون[1] جزعين ، حتى إذا واتتهم فرصة ثاروا فيقتلون من جديد . . وهكذا دواليك حتى اضطرهم هذا الضغط إلى اتخاذ مبدأ التقية والتظاهر بغير مايعتقدون ودس الدسائس والعمل سرًّا على كسب عطف الناس . والضعيف المظلوم — يجد عادة تأييداً قلبيًّا فى الناس خصوصاً من الناقمين على الحزب الحاكم ، وهذا ما وجده الشيعة فى الموالى الفرس الذين رفعت بهم دولة بنى العباس بعد ذلك . قيل : « لقى الحسين الفرزدق الشاعر يوماً فسأله : كيف حال الناس ؟ فقال الفرزدق : القلوب معك والسيوف مع بنى أمية والنصر من عند الله » .

ولقد بلغ من قسوة بنى أمية عليهم أن كانوا يتساءمون بلعن على والحسين وشيعتهما على المنابر . وخطب عبدالله بن قيس الفهرى — عامل يزيد على المدينة — فاطمة بنت الحسين لنفسه فعزله يزيد وغرمه ثلاثين ألف دينار وأمر بتعذيبه حتى رُئى لفقره يسأل الناس وفى عنقه خرقة صوف !!

كما بلغ من عطف الشعراء على آل البيت أن أطلقوا عليهم اسم المظلومين وكانوا يدافعون عنهم ويرفضون جوائزهم ، كما فعل الفرزدق يوم مدح زين العابدين بحضرة هشام ، ويفضلونهم على أنفسهم ويتألمون لألمهم — يقول شاعرهم أبو الحسين الجزار :

---

( ١ ) أخبت القوم : صاروا فى الخبت وهو ما اطمأن واتسع من الأرض .

ويعود عاشوراء يـذكرنى رزء الحسـين فليت لم يعد
ويـداً به لشماتة خضبت مقطوعة من زندهـا بيدى

**( ب ) حزب بنى أمية :**

يدعى الأمويون أن الخلافة وصلت إلى عثمان بطريق قانونية . ثم قتل عنها ظلماً، فهم ورثته الشرعيون لأنهم أقرب الناس إليه . وهذا ما كان يردده شعراؤهم بصورة خاصة . ومن أراد أن يتملقهم من شعراء الأحزاب الأخرى . حتى شعراء الحزب الشيعى . فالفرزدق مثلا يردد ذكر عثمان كثيراً فى أماديحه لبنى أمية فيقول فى جملة ما قال :

خلافة لم تكن غصباً مشورتها أرسى قواعدها الرحمن ذو النعم
كانت لعثمان لم يظلم خلافتها فانتهك الناس منه أعظم الحرم

**( ح ) الحزب الزبيرى :**

لم يكن هذا الحزب يستند إلى إرث ولا إلى دعوى قرابة من الرسول . بل إلى مكانه وشرفه فقط . أليسوا من قريش وهى فى ذروة العرب ؟ فلماذا يتحكم بنو أمية بالملك دونهم ويقصونهم عن المراتب العليا ؟ ويبدو أن هذا الحزب انتعش بعد مقتل الحسين إذ انضم إليه بعض الشيعة والموالى الناقمين على بنى أمية نكاية بهم . فقضى عليه الحجاج قضاء سريعاً واجتثه [١] من أصوله فلم يسمع له بعد قتل ابن الزبير حسيس ، بل طفق الشعراء فى بعض الأحيان يتحاملون عليه تحاملاً لئيماً . وذلك إرضاء لحزب بنى أمية الحاكم طبعاً بما عندهم من دنيا [٢].

**( د ) حزب الخوارج :**

انشق هذا الحزب عن علىّ بعد حادث التحكيم فى صفين . وحجته أن معاوية مغتصب لا تجوز طاعته . وأن الخلافة لعلىّ . ولكنه حينما قبل التحكيم أصبح

---

( ١ ) اجتث : استأصل .
( ٢ ) انظر فى المنتخبات الفصل الرابع من هذا الكتاب .

كمن ينزل عنها بإرادته ، وهى ثوب ألبسه الله إياه فخلعه ، ولذلك تخلع الطاعة له!!

وأن الحكم بعد هذا لله وحده . وانسحبوا إلى العراق ثم انتشروا فى الأحساء ونجد واليمامة وتشتتوا شيعاً وأحزاباً وأخذوا يمعنون تقتيلاً وتفظيعاً . وواوا عليهم أمراء منهم كانوا يسمونهم « أمراء المؤمنين » ويظهر أن الفطرة البدوية فيهم لم يستطع الإسلام لها صقلاً وجلاء بل أخذوه على ظاهره وآمنوا به إيماناً عميقاً من دون تفكير ، وكانوا يقاتلون بشجاعة نادرة حتى كادوا يوهنون ملك بنى أمية ، لولا الحجاج والمهلب ابن أبى صفرة . وقد بقيت الحياة تخفق فى هذا الحزب برغم كثرة من قتل منهم حتى أواخر الدولة العباسية . ولا يزال منهم قسم إلى الآن فى شرق الجزيرة العربية على شاطئ الخليج الفارسى وفى الجزيرة الخضراء بتونس وفى منطقة زوارة بطرابلس الغرب ، ويسمون أنفسهم المذهب الخامس . وبينهم حتى الآن صلات قوية ومكاتبات ، وهم فى نهاية الأدب والحشمة واللطف والتدين .

**مروان بن الحكم :**

لنعد إلى مروان فقد تركناه طويلاً مع حفنة من أصحابه يسمونه خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين وهو لا يملك شبراً من أرض . لنعد إليه فقد تركناه يتسكع حول دمشق يحاول دخولها فلا يستطيع وفيها نائب عن الضحاك مصمم على الدفاع عنها إلى النهاية ، وحاول اللجوء إلى جهة مأمونة فتحيّر . إن أعداءه من الحزب الزبيرى وأعوانهم مسيطرون فى الحجاز ومصر والعراق وسوريا . وكان الضحاك قد انسحب ببنى قيس إلى مرج راهط شرقى دمشق لجسر مروان بعيداً عنها ومناوشته لقتله والتخلص منه وإعلان خلافة ابن الزبير خالصة نقية . فلم يجد مروان بدّاً من أن يصادمه مصادمة اليائس يؤيده الأمويون وبنو كلب فقط . فالتحما بموقعة فاصلة تشتت بعدها بنو قيس واستحكم العداء الخالد بسببها بين بنى كلب « من قبائل الجنوب » وبين القيسيين وهم من «قبائل الشمال» . وتوطدت سمعة مروان فى الضواحى وفتحت له دمشق أبوابها فدخلها دخول الفاتح واستقر فيها على حذر . ونظر ، فإذا العراق والحجاز واليمن ومصر وفلسطين فى قبضة ابن الزبير . وخراسان أعلنت استقلالها وقرقيسا والجزيرة فى يد القيسيين ، والكوفة فى يد المختار الثقفى .

وهو بينهم كالجزيرة الصغيرة فى المحيط الصاخب . وكان من الحزم أن رسم خطة عسكرية بارعة طبقها فى الحال . أرسل إلى الحجاز جيشاً يناوش ابن الزبير مناوشة يلهيه بها عن الجيش الآخر الذى سار به مروان بنفسه إلى مصر . فافتتحها واستخلف عليها ابنه عبد العزيز . وعاد إلى دمشق ليستمع إلى نكبة الجيش الذى بعث به إلى الحجاز وتشتته فى الربذة ، وأنه لم ينج منه إلا قليل . بينهم شاب أخفش دقيق الجسم كان يحمل العلم ، فلما رأى السلامة فى الفرار ألقى العلم وولى لا يلتفت إلى ورائه . واشتهر هذا الشاب النحيل بعد ذلك باسم الحجاج ، وكان له شأن أى شأن فى سياسة الدولة الأموية وتوطيد أركانها .

عاد مروان إلى دمشق فإذا عمرو بن الأشدق يحاول الوثوب بها فتخلص منه بسرعة وحزم . وعزل خالداً عن ولاية العهد . وعين ابنه عبد الملك بدلاً منه ثم عبدالعزيز . ومات وفى نفسه ألمٌ أن لم يستطع القضاء على ابن الزبير الذى طرده من الحجاز يوم أعلن استقلاله فيه . وقيل خنقته أم خالد وبعض جواريها تحت فراش لم يتزحزحن عنه حتى تزحزحت روحه عن جسده .

**عبد الملك بن مروان :**

تولى الخلافة عام ٦٥ هـ وعيون الطامعين بالملك تحوم حوله لتتسقط منه غرة . وأخذ على نفسه تنفيذ برنامج والده والقضاء على أعدائه واحداً بعد واحد . سار إلى قنسرين للقاء زفر . وما كاد يخرج من دمشق حتى ثار فيها عمرو بن سعيد ابن العاص ، ولى العهد بموجب مؤتمر الجابية ، فأسرع فى العودة إليه وقتله . ثم ارتد إلى قنسرين فصالح زفر زعيم القيسية الجبار ليأمن جانبه إذا حارب الزبير ، والتفت إلى العراق فقتل مصعب بن الزبير واستولى على الكوفة والبصرة ولكنه خسر قائده الباسل عبيد الله بن زياد فاتح دمشق لأبيه مروان . ورجع إلى دمشق يفكر فى إتمام البرنامج بفتح الحجاز مركز الثورات القرشية . وجلس يوماً يشاور أصدقاءه فى ابن الزبير فقال له هذا الشاب الذى رأيناه فى الربذة جنديًّا فرّاراً : « أنا له يا أمير المؤمنين ، فلقد رأيت فى منامى أنى سلخته من جلده

وقطعت رأسه» . فنظر إليه عبدالملك نظرة المتفحص، وكأنما أدرك فيه سرًّا من أسرار العبقرية الحربية والجبروت . فجهزه فى ألفين وحمله أماناً لعبد الله بن الزبير يسلمه إياه إذا أطاع ودخل فى الجماعة وإلاّ فالسيف .

أرسل عبد الملك الحجاج إلى الحجاز عام ٧٠ هجرية والتفت إلى الخوارج فى الجزيرة والعراق واليمامة يناضل هنا ويناضل هناك ليعيد مجد بنى أمية : ذلك المجد الذى تعب ببنائه معاوية الأول الداهية المكيافيلى فى سنين كثيرة فقوضته بلاهة معاوية الثانى فى دقيقتين .

## ٢ ــ البيئة الاجتماعية

لم يستطع الإسلام ــ كما رأينا ــ تهذيب العصبية القبلية وإصلاح النفوس البدوية دفعة واحدة ، لأن العثرات السياسية كانت تقف فى طريقه دائماً . حتى الجيوش المحاربة على الحدود ــ وهى المفروض فيها التجرد المطلق للإسلام الصافى وحده ــ لم تكن تستطيع التخلص من النعرة «العشائرية» ، فبقى الفرد ذائباً فى عشيرته يعتز بها ويحامى عنها ويفاخر بها ، انظر إلى قول سلمة بن زياد بن أبى سفيان :

وإن تقهرونى حين غابت عشيرتى ... فمن عجب الأيام أن تقهروا مثلى !!

وإلى قصة ذلك الباهلى الذى لقيه الفرزدق فى المربد [1] يبيع نحياً من سمن فسامه الفرزدق فعرفه الباهلى فوهبه إياه على أن يهب له الفرزدق أعراض قومه فلا يشتمهم ! ! !

وإلى تلك المرأة الباهلية ، سوداء بنت العجيل ، التى استوهبت الفرزدق أعراض بنى الحبال فقال :

وهبت لسوداء الحبال فأصبحت ... وقد علقت منى سيور التمائم

ألا يدل هذا على أن الشعور القومى المتسع لم يشمل نفوس الناس زمن بنى

(١) المربد : إحدى أسواق العرب المشهورة قرب البصرة .

أمية ، وأن عقليتهم البدوية لم تتغير إلا قليلا ، وأن كبار الفقهاء لا يمثلون المجتمع العربى تمثيلا صحيحًا تامًّا . . بل يمثلون طبقة خاصة منه فقط ، وأن الذى يمثل الشعب أصدق تمثيل هم الشعراء ، صحف ذلك الزمان السيارة .

والفرزدق صورة للحياة الأموية فى الناس ، كما أن الحجاج صورة صحيحة للحزب الحاكم ، بل إن صورة الفرزدق نفسه لا تتم إلا بالتعرف إلى الحجاج ودراسة عصر الحجاج ، ولا نقول عصر عبد الملك أو سليمان أو هشام ، لأن الحجاج كان إمبراطوراً فى زى عامل ودكتاتوراً فى صورة موظف . حكم النصف الشرقى من المملكة الأموية ، وافتتح الهند والسند والبلوج والأفغان وبلاد الترك وما وراء النهر والصين . . إلخ ، وعين عليها نواباً وملوكاً يأتمرون بأمره ويطيعون إشارته . ومات فى عزه بعد أن وطد الملك لبنى أمية وشاده على ركن ركين وأساس متين ، وخلّف فى السياسة والإدارة والثقافة آثاراً لا تمحى عن الزمن .

دخل الحجاج العراق والفوضى السياسية تنوشها من كل جانب فوطدها بعزم وحزم ودهاء وقسوة . أما الفوضى الأخلاقية فحدث عنها ولا حرج . قيل بلغ من جرأة فسّاق البصرة زمن زياد أن كانوا يقبضون على المرأة فى الطريق . ويسمحون لها أن تنادى ثلاثة أصوات فإن أجابها أحد أطلقوها ، وإن لم يغثها أحد حلت لهم!

وأما التعدى على أموال الناس والمصوصية وقطع الطرق ونبش القبور فأكثر . انظر إلى قولهم يمدحون مدير شرطة الحجاج ، فإنك مستنبط منها صورة صحيحة لمستوى العراق الأخلاقى لا شك فيها . قال الشعبى : « فوالله ما رأيت قط صاحب شرطة مثله ، كان لا يحبس إلا فى دين . وكان إذا أتى برجل نقب على قوم وضع منقبته فى بطنه حتى تخرج من ظهره ، وكان إذا أتى برجل نباش حفر له قبراً ودفنه فيه حيًّا . وإذا جىء برجل قاتل وأظهر سلاحاً قطع يده ، فربما أقام أربعين يوماً لا يؤتى إليه بأحد » .

هذه الفوضى السياسية والشذوذ الأخلاقى والانهيار الاجتماعى جعل الولاة يقسون على العراق قسوة جبارة لا رحمة فيها ولا شفقة ، أضف إلى ذلك الرغبة فى توطيد الملك والضغط على الأحزاب المخالفة للحزب الحاكم وإخبات نفسها

وإخضاعها للملكية المستبدة بعد أن كانت قبلية مستقلة . وليس من اليسير تحويل مجرى السيل الاجتماعى من بداءة مطلقة إلى عبودية مطلقة فى زمن يسير .

* * *

كانت العراق مثلا فى تضارب الآراء حتى كان كل فرد منهم أمة وحده ، له آراؤه وتاريخه وأحلامه وطموحه . وفى هذا المجتمع الموّار[1] تجمعت رسوب مختلفة لأحزاب متباينة دينية وسياسية وثقافية وعرقية . ففيهم العربى الخالص والمتأثر بالفرس والحر والعبد والهجين . . . وفيهم الزبيرى والمروانى والعلوى والتوّاب والخارجى والسنى والكيسانى والمختارى والسبئى والمرجئ ، وفيهم من يميل إلى الأزارقة أو النجدات أو البيهيسية أوالصفرية أو الإباضية من مذاهب الخوارج . . . كل حزب سياسى أو دينى ، بل كل فكرة أومضت فى العراق تركت رسوبها فيه ، فجاء من هذه الكتلة البشرية المختلطة مولود مشوّه عجيب الخلقة رائع المنظر مخيف المخبر ، هو المجتمع العراقى الماثل أمام الحجاج يوم وقف على منبر الكوفة يهدّد ويتوعد ويعلن الأحكام العرفية التى استمرت من بعد عشرين عاماً . وزادتها شدة وعنفاً الثورات المتوالية التى قام بها ابن الجارود ومطرف بن المغيرة وعبد الرحمن بن الأشعث الذى بلغ عدد الثائرين معه نحو مئتى ألف مقاتل ؛ مما جعل الحجاج يرتكس عليهم بوحشيته حتى أدبهم وأخضعهم للأمويين وفتح بهم الشرق كله حتى الصين .

وبعد ، أرانى أطلت قليلاً فى وصف العصر الإسلامى الأول وتعرّضت لأحداثه الجسام ولبعض شخصياته بالشرح حيناً وبالتلميح حيناً آخر ، ولم أتعرض للقسم الغربى من المملكة الإسلامية بإشارة ، وما ذلك عن إهمال . لكن الشاعر الذى سنتحدث عنه بعد ، لم يتأثر أى أثر بمجرى حوادثه لبعده عنه وعن مشاغله ؛ فهو لا يمثل إلا هذا الجزء الشرقى من الإمبراطورية بعروبته وسياسته وأخلاقه فى الشام والعراق والجزيرة العربية .

---

(١) الموار : المائج المضطرب .

## ٣ ـ ألسنة الشعراء

انطلقت ألسنة الشعراء أوائل دولة بنى أمية ، تؤيد الأحزاب السياسية أو تعارضها فانتعش الشعر السياسى وأصبح الشاعر لا يمثل قبيلة واحدة فقط بل يمثل حزباً كاملاً تنطوى تحته قبائل مختلفة . بل ربما هجا بطناً أو فخذاً من قبيلته فى حزب معادٍ كالذى وقع بين جرير والفرزدق وكلاهما من تميم . ولم تكن الحرب كلامية فحسب ، ولا انتهى الأمر عند السباب والشتائم ، فالتاريخ يحدثنا عن كثير من حوادث الاغتيالات والثورات الدامية والانتقام والتشريد عن الماء . . . وكان من مصلحة الحزب الحاكم من أمية أن يثير هذه الحرب بين الأحزاب ويهيج العصبية ليلهيهم عنه ، شأن السياسى البارع يفرّق الأحزاب ليسودها جميعاً وليكون كلٌّ منها محتاجاً إليه . انظر إلى سليمان بن عبد الملك وقد اجتمع عنده مرة الفرزدق وجرير وكثير وابن الرقاع فاستنشدهم من فخرهم فبدرهم الفرزدق مرتجلاً بفخر متشامخ .

فقال لهم سليمان : لا تنطقوا ! ! والله ما ترك لكم مقالاً . ولم يكن قصد سليمان بهذا إلا أن يؤرث نار الحقد والبغضاء فى قلوبهم وكل واحد منهم يمثل حزبه . وهذا ما يوضح لنا كثرة شعراء الهجاء والإفحاش فيه وتسامح الحكومة والناس بسماع بذاءته وسقطه . فليس فيه تصاوير ، إلا نادراً ولا أطاريف ولا فن. ولكنه سباب فاحش وألفاظ وقحة قذرة تعافها النفس المؤدبة . ويفسر لنا كذلك دوام حرب النهاجى أربعين عاماً بين جرير والفرزدق لا تهدأ حتى تثور ولا تفتر حتى تتفجر ، يسند هذا جماعته وشعراؤه ويسند ذاك جماعته وشعراؤه . ولعل هذا ما يفسر لنا أيضاً وضع أحد أصحاب الفرزدق جائزة قدرها أربعة آلاف درهم وفرس لمن يفضّل صاحبه على جرير . وهو إنما يريد إسقاط الحزب المعادى بإسقاط شاعره .